خطبة صلاة الجمعة 19/8/2022 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(مفهوم الدنيا والآخرة)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (15) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (16) كَلَّا﴾ [الفجر: 15 – 17].

قال المفسرون: (ردَّ اللهُ على من ظنّ أنّ سعة الرزق إكرام وأنّ الفقر إهانة، فأخبر أنّ الإكرام بطاعته والإهانة بمعصيته) فصحّحت الآية مفهوماً خطأ.

أخرج الإمام مسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: **«ما تعدُّون الصُّرَعةَ فيكم؟»** قلنا: الذي لا يصرعه الرجال، قال: **«ليس بذاك، ولكنه الذي يَملِكُ نَفْسَه عند الغضب»** وفي رواية قال: **«فما تعدُّون المفلس فيكم؟»** قلنا: من لا مال له، قال: **«ليس بذلك، ولكنه الذي يأتي يوم القيامة بحسنات، ويأتي قد ظَلَم هذا، وشتم هذا، وأخذ مال هذا، وليس هناك دينارٌ ولا درهمٌ، فيعطَوْن من حسناته ولا يَفي، فيؤخذ من سيئاتهم فيطرح عليه».**

ففي الحديث توضيح وتصحيح نبوي لمفهومي الصرعة والمفلس.

وفي القرآن والسنة من أمثال هذا في تصحيح المفاهيم كثير.

أيها الإخوة:

التصورات توجّه التصرفات، والمفاهيم تؤثر في الحركات والسكنات.

فتصورات الإنسان ومفاهيمه تنعكس في حياته سلوكاً وسكوناً، وأعمالاً وأقوالاً، وعطاءً ومنعاً.

فمن تصور المعنى الحقيقي للذهب حافظ عليه وضنّ به، بينما من تصور أن الذهب معدنٌ خسيس فرط فيه وضيعه؛ فالتصورات توجه التصرفات، والمفاهيم تؤثر في الحركات والسكنات.

هذه سلسلة من الخطب عنوانها: "مفاهيم تحتاج إلى تصحيح" جاءت لتوضيح وتصحيح مفاهيمنا لبعض المصطلحات الشرعية والحياتية، والمأمول ممن صح تصوره أن يصح تصرفه، والله الموفق.

عنوان خطبة اليوم: **مفهوم الدنيا والآخرة**

هل المسلم مطالب بالعمل للدنيا أو بالعمل للآخرة؟

هل يعارض العملُ للدنيا العملَ للآخرة؟

هل ذمّت الشريعة الدنيا؟

أيها الإخوة:

كمالُ المسلم في أنْ يعمرَ دنياه ويسعى لآخرته، وليس بخيرنا من ترك دنياه لآخرته ولا من ترك آخرته لدنياه ولكن يصيب منهما جميعاً، فإنّ الدنيا بلاغ إلى الآخرة، وقد قرأنا في القرآن الكريم قول ربنا على سبيل الثناء: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة: 201] وقولَه تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: 77] ففهمنا أنّ الإسلام يدعو المسلم ليجمع بين الدنيا والآخرة، ويعمل لهما.

وهاهم صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا رهبان الليل فرسان النهار، فيهم التاجر والصانع والعامل والغني والفقير، والأمير والأجير، وتراجم رجالات هذه الأمة مليئة بالقضاة الأئمة، وعلماء الفلك الخطباء، والمهندسين المؤذنين، والأطباء المفتين، والتجار الدعاة إلى الله، والملوك المنفقين في سبيل الله. والأدباء المنافحين عن دين الله.

مدح شاعر الخليفة المأمون فكان مما قال فيه:

تشاغلَ الناسُ بالدنيا وزينتِها وأنتَ بالدِّينِ عن دنياك مشتغلُ

قال له المأمون: ويحك ما زدتَ على أن جعلتني عجوزاً في محرابها بيدها سبحتها، هلّا قلت كما قال جرير:

فلا هو في الدنيا مضيع نصيبه ولا عرَضَ الدنيا عن الدين شاغله

لقد سعى القوم للجمع بين الدنيا والآخرة.

فالحاصل أنّ المسلم مطالب بالعمل لدنياه والعمل لآخرته معاً.

- **أما سؤالنا: هل يعارض العملُ للدنيا العملَ للآخرة؟**

فلم يكن في حسّ الأجيال الأولى ذلك الفاصل الحاد بين الدنيا والآخرة الذي أحسته الأجيال المتأخرة، لم يكن في حسهم أنّ هناك أعمالاً معينة للدنيا دون الآخرة، بل إنّ المسلم الأولَ كان يعمل العمل الدنيوي ويتراءى أمامه في اللحظة ذاتها موقعُ هذا العمل في الآخرة، فإن كانت عاقبته في الآخرة حسنة أمضاه وإن كانت سيئة تركه، وربما أخطأ فعمله فأسرع الفيئة والتوبة.

لقد كانت صورة الآخرة تتحرك في ضمير المؤمن وهو يتحرك في عمله اليومي، يبصر بعينَي قلبه المحسنين في بيعهم وشرائهم وأخذهم وعطائهم يساقون إلى الجنة زمراً، ويبصر الفجار الذين يخونون ويظلمون ويعتدون ويكفرون وهم يسحبون فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ.

وبهذا الإيمان الراسخ بالآخرة وبهذه الصورة الفياضة كان المسلم يحيا لحظتَه في الدنيا ثم يعيش في التو جزاءها في الآخرة، ومن ثم صلحت أحوالهم وأعمالهم في الدنيا وصارت قريبة من المعجزات.

كان للتابعي الجليل محمد بن المنكدر قطع قماش بعضها بخمسة وبعضها بعشرة فباع أجيره في غيبته شقة من الخمسيات بعشرة، فلما عرف لم يزل يطلب ذلك المشتري طول النهار حتى وجده فقال له: إن الأجير قد غلط فباعك ما يساوي خمسة بعشرة، فقال: يا هذا قد رضيت، فقال: وإن رضيت فإنا لا نرضى لك إلا ما نرضاه لأنفسنا.

فاختر إحدى ثلاث خصال إما أن تأخذ شقة من العشريات بدراهمك، وإما أن نرد عليك خمسة، وإما أن ترد شقتنا وتأخذ دراهمك.

فقال أعطني خمسة، فردّ عليه خمسة وانصرف الأعرابي يسأل ويقول من هذا التاجر؟

فقيل له: هذا محمد بن المنكدر، فقال: لا إله إلا الله! هذا الذي نستسقي به في البوادي إذا قحطنا!

فالحاصل أنّ العمل للدنيا لا يعارض العمل للآخرة، بل عمل الدنيا بضوابطه الشرعية هو عينه العمل الذي يوصل لجنة الآخرة.

- **أما السؤال الثالث: هل ذمت الشريعة الدنيا؟**

فإنّ لفظة الدنيا وردت في القرآن في خمس عشرة ومائةِ مرة، وليس في موضع منها ذم لها، بل جاءت الآيات مبينة حقيقة الدنيا حيناً، مظهرة فتنتها حيناً آخر، ملقية باللوم على من آثر دنياه على آخرته، داعية للتفكر فيها وفي أختها الآخرة، مبينةً الثواب والعقاب الذي يلحق المحسن والمسيء فيهما، حاثة المؤمن على أن يسأل ربه حسنة الدنيا والآخرة.

نعم، ذمّ الحديثُ الشريف الدنيا عندما تكون حائلاً بين الإنسان وإيمانه بالله واليوم الآخر، أو حين يجنيها من حيث يخالف أوامر ربه أو يبذلها لغير ما شرع ربه.

ومدحَ الحديثُ الشريف الدنيا عندما تكون عوناً للعبد على سعادة الدارين، له وللآخرين، وعندما تعينه على نيل مرضاة الله تعالى.

قال أحد العلماء: (فالدنيا في الحقيقة لا تذم، وإنما يتوجه الذم إلى فعل العبد فيها، إذ هي قنطرة أو معبر إلى الجنة أو الى النار، ولكن لما غلبت عليها الشهوات والخصومات، والغفلة عن الله والإعراض عن الدار الآخرة... صار لها اسم الذم عند الإطلاق؛ وإلا فهي مبنى الآخرة ومزرعتها ومنها زاد الجنة وفيها اكتسبت النفوس الإيمانَ بالله ومحبتَه وذكرَه، وخيرُ عيش ناله أهل الجنة في الجنة إنما كان بما زرعوه فيها).

والحاصل أن الشريعة لم تذم الدنيا عندما تكون زاداً للجنان، وطريقاً للإحسان.

أيها الإخوة:

من الأخطاء التي وقعت في تصور المسلم أنّ الدنيا مذمومة شرعاً، وأنّ العمل لها يصدّ عن العمل للآخرة، وأنّ الشريعة تطالبه بالسعي للآخرة دون الأولى.

فنتجَ عن هذا التصور الخطأ أن صارت مطاراتُ المسلمين يبنيها لهم غيرهم، وأدويتُهم النوعية يستوردونها من بلاد غيرهم، وأنظمتُهم ومناهجُهم التعليمية يترجمونها عن غيرهم، وأسلحتُهم يشترونها من معامل غيرهم، وهكذا صاروا تبعاً لغيرهم، فضاعت الدنيا والآخرة.

إنّ الصورة الكارهةَ للدنيا والذامّةَ لها والمبعدةَ عنها أنتجت إصابات قاتلة للعالم الإسلامي، فنتج عنها الجهل والمرض والفقر.

وعلى الطرف المقابل، أخطأ غير المؤمنين عندما لم يؤمنوا بالآخرة، وتصوروا أنّ الحياة مادة، وليس شيء وراء الطبيعة، وأن اليومَ ملك وغداً هلك!

فنشروا – بسبب هذا التصور الخاطئ- في الدنيا الحروب والأسلحة الفتاكة، وملؤوها مخدرات ومفترات وشهوات وملهيات، وتاجروا فيها بالأعضاء وبالنساء وبالبشر، فضيعوا الدنيا والآخرة.

والكمال في تعاليم الإسلام النابعة من القرآن والسنة، ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [البقرة: 201] فالمسلم مطالب بالعمل لدنياه وآخرته معاً، والعمل لدنياه زاده لآخرته، والذم والمدح في الدنيا يتوجه لعمل العبد فيها لا لذاتها، والله أعلم.

أيها الإخوة:

خلاصة الخطبة في هذه الكلمات:

جَعْلُ الدنيا والآخرة معسكرين متقابلين أو متضادين إذا اتجه المرء لأحدهما انفصم عن الآخر، وإذا سالم أحدهما عادى الآخر؛ هذا التصور غير صحيح، والصواب في فهم الدنيا والآخرة الآتي:

1- كمال الإنسان في أن يعمر دنياه ويسعى لآخرته، وليس بخيرنا من ترك دنياه لآخرته ولا من ترك آخرته لدنياه ولكن يصيب منهما جميعاً.

2- العمل للدنيا لا يعارض العمل للآخرة، بل عمل الدنيا بضوابطه الشرعية هو عينه العمل الذي يوصل لجنة الآخرة.

3- لم تذم الشريعة الدنيا عندما يجنيها المرء من حلها ويبذلها لمستحقها، وإنما ذمت من صدته الدنيا عن الإيمان أو منعته من طلب رضا الديان.

4- نصوص القرآن والسنة المحذرة في ظاهرها من الدنيا، جاءت لتحذر من افتتان الناس بالدنيا ونسيانهم الآخرة، ولم تجئ لتمنع عمارة الأرض أو تمنع الحركة والنشاط في الدنيا، وهي شبيهة بلافتات المرور التي تحذر من الانزلاق في الطريق، فهي لا تريد منع السير بالمركبة، ولكن تريد ألا ينزلق أحد ولا يسقط.

أيها الإخوة:

التصورات توجّه التصرفات، والمفاهيم تؤثر في الحركات والسكنات، ولهذا جاءت سلسلة مفاهيم تحتاج إلى تصحيح، وهذه الخطبة تحدثت عن مفهوم الدنيا والآخرة، والمأمول ممن صح تصوره أن يصح تصرفه. والله الموفق.

أخرج الإمام الترمذي عن أبي كبشة الأنماري قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«إنما هذه الدنيا لأربعة نَفَر: عبدٍ رزقه الله مالاً وعلماً، فهو يتَّقي في ماله ربَّهُ، ويَصِلُ به رَحِمَهُ، ويعلم أنَّ لله فيه حقاً، فهذا**

بأفضل المنازلِ، وعبدٍ رزقه الله علماً ولم يرزقْه مالاً، فهو صادقُ النية لله، يقول: لو أنَّ لي مالاً لَعَمِلْتُ بعمل فلان، فأجره بنيته، فأجرهما سواء، وعبدٍ رزقه الله مالاً ولم يرزقه علماً، فهو يَخبِط في ماله بغير علم، لا يتَّقي فيه ربَّه، ولا يصل به رحمه، ولا يعلم لله فيه حقاً، فهذا بأخبث المنازل، وعبدٍ لم يرزقْهُ الله مالاً ولا علماً، فهو يقول: لو أنَّ لي مالاً لعملت فيه بعمل فلان، فهو بنيته، وَوِزرُهما سواء».

والحمد لله رب العالمين